ستفشل وافعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذييل الآية بقوله :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾ [النحل]

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التى يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ[1] ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. (٤٨) ﴾ [النحل]

المعنى : أعمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

كلمة شىء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شىء ، أى : أتفه شىء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أى : كل شىء .

---

(١) تفيأ فيه : تظلل ، وتفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاث الأشياء ظلالها . [لسان العرب ـ مادة : فيأ].

فانظر إلى أىّ شىء فى الوجود مهما كان هذا الشىء تافهاً ستجد له ظلاً :

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]

يتفيأ : من فاءَ أى : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيِّر ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذى يُسمَّى الفَيْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا ما استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس فى السماء يصبح ظلّ الشىء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلِّ وكيف يمتدُّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل فى الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .

ما معنى : (انسيابى) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سكونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها فى حركة عقارب الساعة ، وهى أوضح فى عقرب الثوانى منها فى عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها فى عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثوانى لوجدته يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة فى حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها فى عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هى الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعنى أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. أى : حركة مستمرة ومُوزَّعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو فى الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزّع المِلّى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلْقه إلى ظاهرة كونية فى الوجود مُحسّة ، يدركها كلٌّ منّا فى ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التى يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۝١٥ ﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية فى الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ۝٤٤ ﴾ [الإسراء]

فكل ما يُطلَق عليه شيء فهو يُسبِّح مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني ، حيث أتى باليمين مُفْرداً ، في حين أتى بالشمائل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أتى بأقلّ ما يُتصوَّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلالُهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

بصيغة الجمع . أي : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفيأ ظلّ شيء واحد ، لا .. بل ظِلّ أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أي : كل شيء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود ؟

معنى : سُجّداً أي : خضوعاً لله ، وكأن حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقائل

الأعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسخَّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كونياً ، والشيء تُعده إعداداً قدرياً .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدُّها لأنْ تنفجرَ فى الزمن الذى يريده ، وليس الأمر كذلك فى إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفى انتظار لهذا الأمر الإلهى باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قَدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهى ضوؤها ، ويُرتّب على هذا الحكمَ أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القدرىّ منضبطةٌ به ومنتظرة لـ « كُنْ » التى يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

هكذا بيَّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شىء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شىء » جاءت مُفْردة دالّة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كلَّفنا الله به من ركن فى الصلاة ، وهو مُنْتَهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجدَ لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفى هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

وكذلك فى قوله :

﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ . [الليل]

فيُطلَق الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلَّ ذلك على خضوع الذات كلها ؛ لأن أشرف ما فى الإنسان وجهه ، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دلَّتْ الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً فى الخضوع التام بالظلال ؛ لأن ظل كل شىء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات فى الظلال فى قوله :

﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

يعنى الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد ؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر .. يقول : أيها الكافر ظلُّك ساجد وأنت جاحد .. جاء هذا الترقِّى فى قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)﴾

فأجناس الكون التى يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدتَ خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدتَ خاصية الحركة والحسِّ كان الحيوان ، فإذا وجدتَ خاصية الفكْر كان الإنسان ، وإذا وجدتَ خاصية العلم الذاتى النورانى كان المَلَك .. هذه هى الأجناس التى نعرفها .

الحق تبارك وتعالي ينقلُنا هنا نَقْلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشىء الذى يتحرك ، وهو وإنْ كان مُتحركاً إلا أن ظلّه أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله :

﴿ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : من أقلّ الأشياء المتحركة وهى الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهى الملائكة ..

وقد يقول قائل : وهل ما فى السموات وما فى الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم .. لأنك فسرتَ السجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض ، ليدلّ على أن الذات بعلُوّها ودنُوّها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم .

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أن نعرف استطراق العبودية فى الوجود كله ؛ لأن الكافر وإنْ كانَ مُتمرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختيارا ، فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أن يطيع أو يعصى ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

نقـول له : إنك قـد ألفْتَ التـمرّد على الله ، فـطلب منك أن تؤمن لكنك كفرتَ ، وطلبَ منك يا مؤمن أنْ تطيعَ فعصيتَ ، إذن : فلكَ إلْفٌ بالتـمـرّد على الحـق .. ولكن لا تعـتـقـد أنك خـرجتَ من السـجـود والخضوع لله ؛ لأن الله يُجرى عليك أشـياء تكرهها ، ولكنها تقع عليك رغم أنفك وأنت خاضع .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة :

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]

أى : صاغرون مُستذلُّون مُنقَادُونَ مع أنهم أَلِفُوا التمرُّد على الحق سبحانه .

وإلا فهذا الذى ألف الخروج عن مُرادات الله فيـما له فيه اختيار ، هل يسـتطيع أنْ يـتـأبَّى على الله إذا أراد أنْ يُمـرضـه ، أو يُفـقـره ، أو يميته ؟

لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغـر فى كل ما يُجريه عليه من مقادير ، وإنْ كان يأباها ، وإنْ كان قد ألِف الخروج عن مُرادات الله .

إذن : ليس فى كون الله شىء يستطيع الخروج عن مرادات الله ؛ لأنه ما خـرج عن مرادات الله الشـرعية فى التكليـف إلا بما أعطاه الله من اختيار ، وإلا لو لـم يُعْطه الاختيار لما استطاع التـمرّد ، كما فى المرادات الكونية التى لا اختيارَ فيها .

لذلك نقـول للكافـر الذى تمـرّد على الحق سـبـحـانه : تمـرّد إذا أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرّد على الفقر وقُلْ : لن أفتقر ..

وما دُمْتَ لا تـقدر وسوف تخـضع راغماً فلتخـضعْ راضياً وتكسب الأمر ، وتنتهى مـشكلة حياتك ، وتستقبل حـياة أخرى أنظف من هذه الحياة .

وقوله تعالى :

﴿ مِن دَابَّةٍ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

هو كل ما يـدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معناه الحـركة والمشى .. وقوله :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : أن المـلائكة لا يُقال لهـا دابة ؛ لأن الله جـعل سَعْـيهـا فى الأمور بأجنحة فقال تعالى :

﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ .. (١) ﴾ [فاطر]

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

فـخلق الله الطائر يطيـر بجناحـيـه مـقابلاً للـدابة التى تدب على الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و ﴿ مَا ﴾ فى الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين ؛ ذلك لأن أغلبَ الأشياء الموجودة فى الكون ليس لها عِلْم أو معرفة ؛ ولذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : أن الملائكة الذين هم أعلى شىء فى خَلْقِ الله لا يستكبرون؛ لأن علوّهم فى الخَلْقِ من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً[1] على خالقهم سبحانه ؛ لأن الذى أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى .

وما دام الله هو الذى أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به ؛ لأن الذى يُدلُّ إنما يُدلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشىء الموهوب من الغير فلا يجوز أن تُدلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ[2] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢) ﴾ [النساء]

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرَّمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ﴾

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجَل ، والخوف والفزع

---

(١) دَلّ : افتخر . والدلة : المنة . وفلان يُدل عليك بصحبته إدلالاً : أى يجترىء عليك . [لسان العرب ـ مادة : دلل] .

(٢) لن يستنكف : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَفْعه ، ولو أمكنك رَفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التى تدخل فى مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إنْ حصل كذا أفعل كذا .. الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم]

فما داعى الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخُوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربى يقول فى تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكَ إجْلاَلاً ومَا بِكَ قُدْرة علىَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

إذن : مرّة يأتى الخوف لتوقُّع أذى لتقصير منك ، ومرّة يأتى لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .

وقوله تعالى :

﴿ مِّن فَوْقِهِمْ .. ۝٥٠ ﴾ [النحل]

ما المراد بالفوْقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ستّ : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف .. بقيتْ جهة الفَوْقية لتكون هى المسيطرة ؛ ولذلك حتى فى بناء الحصون يُشيِّدونها على الأماكن العالية لتتحكم بعلُوّها فى متابعة جميع الجهات .

إذن : فالفوقية هى محلّ العُلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

فالذى يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله فى السماء ، بدليل أن الجارية التى سُئلت : أين الله ؟ أشارتْ إلى السماء ، وقالت : فى السماء[1] .

فأشارت إلى جهة العُلُو ؛ لأنه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنزَّه عن المكان ، وما نُزِّه عن المكان نُزِّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنزَّه عن أنْ تُحيِّزه ، لا بمكان ولا بزمان ؛ لأن المكان والزمان به خُلقا .. فمَن الذى خلق الزمان والمكان ؟

إذن : ما داما به خُلقا فهو سبحانه مُنزَّه عن الزمان والمكان .

وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية .. فوقية مكان ، أى : أنه تعالى أعلى منَّا .. ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أعْلَى منَّا .. من أىِّ ناحية ؟ مِن هذه أم من هذه ؟

إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس .. فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟ بالطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [النحل]

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥/٤٤٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٠٥) وابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/٢١٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص٤٢٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يا رسول الله إنه كانت لى جارية ترعى قبل أحد والجوانية ، وإنى أطلعها يوماً إطلاعة ، فوجدت الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بنى آدم آسف لما يأسفون فصككتها صكاً ، فعظم ذلك على النبى ﷺ قال : قلت يا رسول الله أعتقها ؟ قال : ادعها إلىَّ . فقال لها : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : ومن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة .

وهذه هى الطاعة ، وهى أن تفعلَ ما أُمِرْت به ، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل]

ولم تقُلْ الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه ، لماذا ؟.. نقول : لأن فى الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقى ، والمراد بالتلازم المنطقى أن كلَّ نهى عن شىء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهى يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل]

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه » وكأن الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هُيِّموا[1] فى ذات الله ، ومنهم ملائكة مُوكّلون بالخلق ، وهم :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات]

ويقول تعالى :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) الهُيام : شدة الحب والوله المؤدى إلى الخضوع بدون إرادة .

(٢) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

ومنهم :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بنَا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوَّره بيده ، ونفخ فيه من رُوحه .. وكأن الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذى ستكونون فى خدمته ، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويُدبِّرون له الأمور .. الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعْنيون فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

أى : أستكبرتَ أنْ تسجدَ ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملَكى العالى ؟.. هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر ، وهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾ [الأنبياء]

كلُّ شىء - إذن - فى الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذى يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فـأبيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها .. وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسخَّرين ، ولا دَخْلَ لنا فى موضوع الأمانة والتكليف !!

لماذا ـ إذن ـ يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسئولية ؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه .. هناك فَرْق .. عندنا تحمُّل وعندنا أداء .. وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً لتحمُّل الأمانة وقُلْنا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عندك مبلغاً من المال مخافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت في هذا الوقت قادر على التحمل وتنوى أداء أمانته إليه عند طلبها وذمّتك قوية ، ونيتك صادقة .

هذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغيّر ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذى يريد أنْ يُبرىء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسى وقت التحمل فلا أضمن نفسى وقت الأداء .

هذا مثال لما حدثَ من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدِّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الأمانات ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ما الذى جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حاله وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمال كما يقولون لَقالَ : يا ربِّ اجعلنى مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجريه علىَّ ، فأنا طَوْع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبِل الاختيار وتحمَّل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربِّه وخالقه ، فقال : يارب أنت خلقْتَ فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكنّا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك .. هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألاَّ يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير .. فالأول مع أنه قادر ألاَّ يفعل ، فقد غلّب مُراد ربّه فى التكليف على مراد نفسه فى الاختيار .

ثم ينتقل الحق - تبارك وتعالى - إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾

وقد جاء النهى فى الآية نتيجة خروج الإنسان عن مُراد ربّه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً - يعنى الثقلين - هم المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء وقَهْر فى أشياء أخرى .. ومع ذلك لم يشذّ من خَلْق الله غيرهما .

فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار ، وقد اختارت التسخير ، وانتهت المسألة في بداية الأمر ، ومع ذلك فهي مُسخَّرة وتُؤدِّي مهمتها لخدمة الإنسان ، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض .. فهي تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر .. وكذلك الهواء والأرض والدابة الحلوب ، وكُلُّ ما في كون الله مُسخَّر للجميع .. إذن : كل هذه الأشياء لها مهمة ، وتؤدي مُهمتها على أكمل وجه .

ولذلك يقول تعالى في حقِّ هذه الأشياء :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، لا يتخلّف منها شيء عن مُراد ربه .

فما الحال في الإنسان ؟ يقول تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. (١٨) ﴾ [الحج]

ولم يَقُلْ : والناس . ثم قال :

﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هذا هو الحال في الإنسان المكرّم الذي اختاره الله وترك له الاختيار .. إنما كل الأجناس مُؤدِّية واجبها ؛ لأنها أخذتْ حظَّها من الاختيار الأول ، فاختارت أن تكون مُسخَّرة ، وأن تكون مقهورة .

فالإنسان .. واحد يقول : لا إلهَ في الوجود .. العالم خُلِق هكذا بطبيعته ، وآخر يقول : بل هناك آلهة متعددة ؛ لأن العالم به مصالح كثيرة وأشياء لا ينهض بها إله واحد .. يعني : إله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس .. الخ .

إذن : هذا رأى فى العالم أشـياء كثيرة بحيث لا ينهض بها فى نظره إله واحد ، ونقـول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قـدرة الفردية فيك .. لا .. خُذها من قدرة من :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

لأن القدرة الإلهيـة لا تعالج الأشياء كما تفـعل أنت ، وتحتاج إلى مجهـود وعملٍ .. بل فى حقِّه تعالى يتم هذا كـله بكلمة كُنْ .. كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقـول : الكون خُلِق هكذا لحاله دون إله . والآخـر يقـول : بل له آلهـة متـعـددة .. نقـول لهم : أنتم مـتناقضـون ، فتـعالَوْا إلى دين الله ، وإلـى الوسطية التى تقـول بإله واحد ، لا تنفى الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقـتضى أجهزة كـثيرة لإدارته ، فـاعلم أن الله تعالى لا يبـاشر تدبـير أمـر الكون بعلاج .. يفـعل هذه ويفـعل هذه ، كمـا يُزاول البـشر أعـمالهم ، بـل يفعلهـا بـ « كُنْ » ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبـادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحـيَّكم وميـتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمـعوا فى صعيد واحد ، فسـأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيـته ، فـأعطيت كل سـائل منكم ما سـأل مـا نقص ذلك من مُلْكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغـمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنِّى جواد ماجد ، أفعل مـا أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما

أمرى بشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

فيا مَنْ تُشفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتى نواحيه ، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر ؛ لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً فى الكون ، وإنما يباشره بكلمة « كُنْ » .

إذن : إله واحد يكفى ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أن تقول بتعدُّد الآلهة .. وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفى إلهين اثنين ، فنَفْى ما هو أكثر من ذلك أوْلَى .. واثنان أقل صُور التعدد .

ومعنى ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ أى : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونواه ، والأوامر والنواهى تحتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأىُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون ؟ أم أنه يحتاج إلى مُساعد ؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد فهذا نقْص فيه ، ولا يصلح أن يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كُلٌّ منهما فى عمل ما ، هذا لكذا وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر .. وأى ناحية إذن من نواحى الحياة تكون هى المسيطرة ؟ ومعلوم أن نواحى الحياة مشتركة ومتشابكة .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن . فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

وقـال :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

فكيف الحـال إذا أراد الأول شـيـئـاً ، وأراد الآخـر ألاَّ يكون هذا الشـيء ؟ فـإنْ كان الشيء كـان عجـزاً فى الثانى ، وإن لم يكُن كـان عجزاً فى الأول .. إذن : فقوة أحدهما عَجْز فى الآخر .

ونلحظ فى قوله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾ [النحل]

عظة بليغـة ، كأنه سبـحانه حينمـا دعانا إلى توحيـده يقول لنا : أريحوا أنـفسكم بالتـوحيد ، وقـد أوضح الحق سبـحانه وتعـالى هذه الراحة فى قوله :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى رجل خُلِّص لسـيد واحـد ، ورجل أسيـاده كثـيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هـذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر . فـهو دائماً مُتْعبٌ مُـثقَلٌ ، أما المملوك لسيـد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففى أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وِجْهة واحدة تكفيكم كُلَّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبُه سبحانه راحةٌ لنا ؛ لذلك قبل أن يطلبها منّا شهد بها لذاته تعالى ، فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه ؛ لأنه لا أحدَ غيره .. لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي .. وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيري ، وإنْ كان هناك إله غيري فَلْيُرِني نفسه ، وليُفصِح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذي خلق .. فأين هو ؟ لماذا لا يعارضني ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع الله في خَلْقه أحد ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسلَّم لصاحبها .

فإنْ قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تَدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلُحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإنْ دَرَوْا ولم يعارضوا فَهُمْ جُبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق ؛ لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حُكْماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم

مع أنكم مختارون في أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمت بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إله غيري يُعينكم على أنْ تفعلوا .

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادةَ الاستدلال ، كما قال تعالى :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

لنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾ [النحل]

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قُلْنا مثلاً : قابلت ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دلتْ على العدد ، وكلمة « رجال » دلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا في جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلَّتْ على الوحدة ، ودلتْ على الجنس ، وكذلك « إلهين » دلَّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفي في الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين ؛ لأنها دلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقديّ لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد .

فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حَسَن بَسَن[1] ، وفلان شيطان ليطان ، يريدون تأكيد الصفة .. وكذلك فى قوله : ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ فقط تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهمّ القضايا بالنسبة للإنسان ، وهى قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾ [النحل]

وكذلك أيضاً فى قوله :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فجاء بقوله تعالى ﴿ وَاحِدٌ ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفى الآية ملْحظ آخر يجب تأمّله ، وهو أن الكلام هنا فى حالة الغيبة :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فكان القياس فى اللغة هنا أن يقول : « فإياه فارهبون » .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى المجابهة للمتكلم قال :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]

وهذا وراءه حكمة ، وملْحظ بلاغى ، فبعد أنْ أكّد الألوهية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥١) ﴾ [النحل]

---

(١) قال ابن منظور فى [اللسان - مادة : بسن] : « حسن بسن إتْباع . قال ابن الأعرابى : أبسن الرجل إذا حَسُنت سَحْنته » .

صَحَّ أنْ يُجابِهَهم بذاته ؛ لأن المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة ، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب .. وكأن السياق يقول : ها هو سبحانه أمامك ، وهذا أدْعى للرهْبة .

وكذلك فى فاتحة الكتاب نقرأ :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ ﴾ . [الفاتحة]

ولم يَقُلْ : إياه نعبد . متابعة للغيبة ، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب فقال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

ذلك لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عز وجل .

فقوله :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥١ ﴾ [النحل]

بعد ما استحضر العبد عظمة ربه ، واقرّ له بالوحدانية وعَلِم أنه إله واحد ، وليس إلهين . واحد يقول : نُعذِّبه . والآخر يقول : لا .

ليس الأمر كذلك ، بل إله واحد بيده أنْ يُعذِّب ، وبيده أنْ يعفو ، فناسب السياق هنا أنْ يُواجههم فيقول :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥١ ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا[1] أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

عندنا هنا اللام .. وقد تكون (اللام) للمِلْك كما فى الآية . وكما فى : المال لـزيد ، وقد تكون للتـخصيص إذا دخلتْ الـلام على ما لا يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمـفتاح للباب ، فالفرس لا يملك اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

وكذلك فى :

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر]

ومرة يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففى قوله :

---

(١) وصب الشيء يصب وصوباً : دام ولزم فهو واصب : دائم لازم . أى : لا يتغير ولا يتبدّل . [القاموس القويم ٢/٣٢٩] .

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٢)﴾ [النحل]

يعني : القدر المشترك الموجود فيهما . أى : الأشياء الموجودة فى السماء وفى الأرض .

أما فى قوله :

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٦٨)﴾ [يونس]

أى : الأشياء الموجودة فى السماء وليست فى الأرض ، والأشياء الموجودة فى الأرض وليست فى السماء ، أى : المخصَّص للسماء والمخصَّص للأرض ، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، فليس لأحد غيره مِلْكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن : فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوب له .. ولذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند فى الألوهية يجب أن تكون له ذاتية وجود .. وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذى يعاند أباه ، وهو ما يزال عَالةً عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك .. فإذا ما شَبَّ الولد وبلغ وبدأ فى الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه ، والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك هِبَة ، وقيام وجودك هِبَة ، كل شىء يمكن أنْ يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ [العلق]

فهذا الذى رأى نفسه استغنى عن غيره - من وجهة نظره - إنما هل استغنى حقاً ؟.. لا . لم يستغن ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝ ﴾ [النحل]

الذى له ما فى السموات والأرض ، وبه قيام وجوده بقيوميته[1] ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيُّوم - يعنى : قائم على أمرك .. ليس قائماً فقط .. بل قيُّوم بالمبالغة فى الفعْل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عَدَم ، وإمداداً من عُدم . إذن : يجب أن تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

وفى الأمثال يقولون « اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى » فإذا كنتَ أنت عالة فى الوجود .. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مُقوِّمات حياتك من الله ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. ۝ ﴾ [النحل]

أى : هذه نتيجة ؛ لأن لله ما فى السموات والأرض ، فلَه الدين واصباً ، أى : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكَه لأحد ، ولا تزال يد الله فى مُلْكه .. وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

---

(١) القيوم : صيغة مبالغة من أسماء الله الحسنى لا يُوصف بها سواه . أى : دائماً شديد القيام والحفاظ على مخلوقاته . [القاموس القويم ٢/١٤٢] .

﴿أفغير الله تتقون (٥٢)﴾ [النحل]

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أنْ تتقىَ غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد علمتَ أن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم .

إذن : فمن الحُمْق أنْ تتقى غيره ، وهو أوْلى بالتقوى ، فإنِ اتقيتُم غيره فذلك حُمْق فى التصرّف يؤدّى إلى العطَب والهلاك ، إنِ اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكَات وما حولها ، فلو سلَم العَقل مثلاً سلَمت وصَحَّتْ الأمور التى تتعلق به ، فيصحّ النظامُ ، وتصحّ التصرُّفاتَ ، ويصحّ الاقتصاد .. وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقالب ، فللقالب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية .. وأهم المتَع المعنوية التى تريح القالب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجّهه .. أن يكون له ربٌّ قادر ، لا يُعجزه شىء ، فإنْ ضاقتْ به الدنيا ، وضاقتْ به الأسباب فإن له رباً يَلجأ إليه فيُسعفه ويكفيه ، وهذه هى الراحة الحقيقية .

وقد ضمن لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ سلامة القالب بما أودع فى الكون من مُقوِّمات الحياة فى قوله :

﴿وقدّر فيها أقواتها[1] .. (١٠)﴾ [فصلت]

أى : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فالله سبحانه لا يريد منكم إلا أنْ

(١) أقواتها : هو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس ـ قاله ابن كثير فى تفسيره (٩٢/٤) .

تُعملوا عقولكم المخلوقة لله لتُفكِّروا فى المادة المخلوقة لله ، وتنفعلوا لهـا بالطاقة المـخلوقة لله فى جـوارحكم ، وسوف تجـدون كلَّ شىء مُيسَّراً لكم .. فالله تعالى ما أراد منكم أنْ تُوجِـدوا رزقاً ، وإنما أراد أنْ تُعملوا العقل ، وتتفاعلوا مع مُعْطيات الكون .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان فى الحياة ؟

هناك أشياء فى الوجود خلقها الله سبـحانه برحمته وفضله ، فهى تفعل لك وإنْ لم تطلب منها أن تفـعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أنْ تطلُع عليك ، ولا من الهواء أنْ يَهُبَّ عليك .. الخ .

وهناك أشيـاء أخرى تفـعل لك إنْ طلبتَ منها ، وتفـاعلتَ معـها ، كالأرض إنْ فعلتَ بيدك فحرثْتَ وزرعْتَ ورويْتَ تعطيك ما تريد .

وفى هذا المجال من التـفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلـون فيما يُفعـل لهم دون انفعـال منهم .. لا بل ارتقاء الناس وتفـاضُلهم يكون بالأشياء التى تنفـعل لهم إنْ فعلوا .. أما الأخرى فـتَفعل لكل الناس ، فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن وللكافر فى أىِّ مكان .

إذن : يترقَّـى الإنسـان بالأشيـاء التى خلقـها الله له ، فإذا انـفعل معهـا انفعلتْ له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعْطه شـيئاً ، ولا يستـفيد منها بشـىء .. ولـذلك قد يقول قـائل : الكافر عنده كـذا وكذا ، ويملك كذا وكذا ، وهو كـافر .. ويتعجَّب من القـدر الذى أعطَى هذا ، وحرَم المؤمن الموحد منه .

نقـول له : نعم أخـذ ما أخذ ؛ لأنه يشـترك معك فـيمـا يُفعل لك وإنْ لم تطلب ، ويزيـد عليـك أنه يعـمـل ويـكدّ وينـفعـل مـع الـكون